

ابو القاسم الزهراوى، رائد الجراحة العربية

منى أبو زيد

بينما كان الطب العربى فى الشرق يصل الى قمته على يد أبى بكر بن زكريا الرازى وعلى بن العباس المجوسى، والشيخ الرئيس ابن سينا، كان الطب العربى فى الاندلس يتطور تطورا عظيما على يد أبى القاسم الزهراوى، أشهر اطباء الاندلس فى القرن الرابع الهجرى .
والزهراوى هو خلف بن عباس (١) الملقب بأبى القاسم ، ولد بالزهراء (٢) قرب قرطبة، ويقال أن اجداده كانوا قد هاجروا الى الاندلس من المدينة المنورة، ولد فى عام ٣٢٥هـ / ٩٣٦ م ، وتوفى فى عام ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م .

وازدهرت شخصية الزهراوى فى عهد الخليفة الأموى الثامن بالاندلس عبدالرحمن الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠هـ / ٩١٢ - ٩٦١م)، فدرس الطب، وعندما استكمل دراسته ، التحق بعمل فى المستشفى الذى انشأه الخليفة فى قرطبة ، وراح يمعن النظر فى الطرق والوسائل المستخدمة فى علاج مختلف الأمراض، وبعد سنوات من العمل فى المستشفى كَوّن معتقداته وخبرته الخاصة به (٣) .

عصر الزهراوى :

يعدّ العصر الذى عاش فيه الزهراوى من أخصب عصور دولة الأندلس سواء من الناحية السياسية أو العلمية . وكان له أكبر الأثر فى نبوغ الزهراوى وتفوّقه .

فمن الناحية السياسية عاش الزهراوى عصرا حكمه اثنان من اعظم حكام الأندلس، أحدهما وهو عبدالرحمن الثالث الذى اعلن نفسه خليفة على المسلمين فى الاندلس، وامتد حكمه خمسين عاما، وامتاز عصره بالقوة والأمن، وازدهار العلوم والفنون ، اما الحاكم الآخر، فهو ابنه الحكم الثانى الملقب بالمستنصر بالله ، وكان هذا الخليفة مثل ابيه محبا للعلم والعلماء وساعد الكثير منهم وأجزل لهم العطاء ، وأرسل العديد من الطلاب للالتحاق بمراكز العلم فى ذلك العصر مثل فارس وبغداد ومصر والهند، وساعدهم على نقل الكثير من الكتب، فازدهرت العلوم فى عصره بالاندلس، وكان من ولعه باقتناء الكتب انه جعل لقرطبة مكتبة تسمى ،،دار العلم،، تحوى مايزيد على المائتين وخمسة وعشرين ألف مجلدة ، وقيل أربعمائة الف مجلدة، وضعت لها فهرس بأربعة وأربعين جزءا (٤) .

وكانت الحالة العلمية فى ذلك العصر انعكاسا تاما للحالة السياسية الراقية التى مرت بها الأندلس ، فازدهر فيها علوم كثيرة ومن هذه العلوم علم الطب الذى نبغ فيه عدد من مشاهير الأطباء ؛ وكان من اشهر اطباء الاندلس فى ذلك العصر، بل اعظم اطباء المسلمين ايضا ، ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوى ، وربما كان الزهراوى اعظم الجراحين العرب على وجه الخصوص،،(٥) .

وكما استطاع عبدالرحمن الناصر انقاذ الحضارة الاسلامية مما كان يتهددها من اخطار خارجية وخلافات داخلية ، صاحب هذا العصر

نهضة في العديد من المجالات، فأقبل الأندلسيون على دراسة العديد من أفرع العلم، وخطا علم الطب في هذا العصر خطوة حاسمة خاصة بعد ما ترجم كتاب ,, ديوسقوريدس,, (٦) . وهو كتاب كان الأمبراطور البيزنطى قد أهداه الى الخليفة وقام بترجمته اصطفن باسيل (٧) .

وكانت الأندلس قبل الفتح العربى عام ٩٢ هـ خالية من الاهتمام بالعلوم واستمرت على ذلك حتى دخلت الحضارة الأندلسية مرحلة ازدهارها، وبلغت أوج عظمتها بين منتصف القرن الثامن والقرن الحادى عشر الميلادى، واشتهر فى ذلك العهد عدد من أطباء الأندلس، واقتبس هؤلاء الاطباء من الحركة العلمية فى المشرق خلاصة تجاربهم و اضافوا اليها فازدهر العلم، فتم نقل كتب البقراط وجالينوس التى ترجمت فى بغداد ونقلت كتب الرازى وعلى ابن العباس المجوسى فى الطب بالاضافة الى ترجمة كتاب ديوسقوريدس، فكانت أغلب مصادر العلوم الطبية فى خلافة الأندلس مؤلفات علماء بغداد وحواضر الدولة العباسية، أى انها عربية المصدر سواء كانت عربية الأصل ، أو يونانية مترجمة بالصيغة العربية التى صنعت بها فى بيت الحكمة .

ويشير الزهراوى من خلال كتاباته الى مجموعة من الاطباء السابقين الذين تأثر بهم سواء أكانوا اطباء يونانيين أو عرب ، فيذكر على سبيل المثال بولس الأجينى، وأتيومس الآمدى، والبقراط ، وجالينوس، وابن ماسوية وجيش الأعم، وما سرجويه البصرى، وابن ربن الطبرى ، وابن نوح القمري، وعلى عيسى الكحال ، واسحاق بن عمران، و ابا الفرج بن الطيب، وابن بطلان ، وابن جلجل، والغافقى، واباسهل السجى وابن جزلة، (٨) .

وفى هذا المناخ السياسى والعلمى الزاهر، ظهر الزهراوى الذى كان نبوغة انعكاسا لما وصل اليه العلم والتقدم فى دولة الأندلس فى

هذا الوقت، فتعرف على المؤلفات الطبية السابقة واستطاع ان يضيف اليها افكارا ومبتكرات جديدة، ونبغ فى مجالات طبية عديدة كان لها اكبر الأثر فى العصور الوسطى، وهذا ما دفع بأحد المؤرخين، وهو براون (٩) ان يذكر أن قرطبة قد اخرجت فى القرن العاشر ، اعظم جراحى الجنس العربى ، وهو ابو القاسم الزهراوى» (١٠) .

كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف :

وتعود شهرة الزهراوى الطبية الى ماسجله فى كتابه ،،التصريف لمن عجز عن التأليف» (١١) من وصف لعمليات جراحية وافكار طبية، وعن هذا الكتاب يقول ابن أبى اصبيعة أن للزهراوى ،، تصانيف مشهورة فى صناعة الطب افضلها ... كتاب ،، التصريف لمن عجز عن التأليف ،، وهو اكبر تصانيفه واشهرها ، وهو كتاب تام فى معناه ،، (١٢) .

كما ينسب الى الزهراوى كتاب ،،تفسير الاكيال والأوزان» (١٣) وأكثر الاحتمال ان هذا الكتاب من بعض أجزاء كتاب التصريف، كما ينسب له ابن أبى اصبيعة كتابا آخر، ولكنه لا يحدد عنوانه .
اما كتاب التصريف فهو سبب شهرة الزهراوى الطبية، فقد اجمعت الآراء فى الشرق والغرب على ان هذا الكتاب ،، يعدّ أول مؤلف فى موضوع الجراحة جاء مكتملا وموضحا بالصور والرسوم» (١٤) وقد خلد هذا الكتاب اسم مؤلفه فى عالم الطب .

والكتاب عبارة عن دليل كامل لفن الشفاء، ويتناول الزهراوى فيه جميع فروع الطب، وخصص معظم الكتاب لموضوع العقاقير الطبية، بينما يتناول فى بقية اجزائه شتى المواضيع كالتشريح والعلاج ، واصول التغذية سواء فى الصحة أو فى وقت المرض، واسماء العقاقير وتركيبها الى غير ذلك من الموضوعات الطبية أو الجراحية .

ويقع كتاب ,, التصريف لمن عجز عن التأليف ,, فى جزئين، الأول نظرى والثانى عملى فى نحو ثلاثين مقالة، ولم يحظ الجزء الأول باهتمام كبير، وفى هذا الجزء يعرض الزهراوى اسباب الأمراض وطرق علاجها مع مناقشة وظائف اعضاء الجسم وقد كتب عن هذا الجزء قائلا : ,, عندما أتممت تأليف هذا الكتاب الذى يحتوى على المداولات الطبية الاساسية ، حينئذ فكرت فى انه يجب علي أيضا أن أضمنه النواحي الجراحية التى تهتم تلازمة الجراحة والتى ظلت مهملة فى مدينتنا، ومع أن دلالات العمليات الجراحية موجودة فى كتب السلف، الا ان يد الزمن القاسية قد محتها، ومن ثم حلت محلها افكار خاطئة،،(١٥) .

ومن خلال هذين الجانبين - النظرى والعملى - من كتاب ,,التصريف،، للزهراوى سنحدد أهم الاسهامات الطبية التى تمت على يد الزهراوى .

أهم اسهاماته الطبية :

اذا كان كتاب الزهراوى نال شهرة واسعة بسبب الجانب الجراحى فيه، الا ان كتابه لم يقتصر على الجراحة، بل ,,كان خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة،، (١٦) .

ففى مجال الصيدلة والعقاقير ظهر نبوغ الزهراوى فى مجالات العلاج والادوية ، ونجده يركز غالبية الكتاب على الاهتمام بالصيدلة مما يدل على تعمقه فيها، خاصة هذه الأجزاء التى خصصها من كتابه للصيدلة ، فهو وان كان قد خصص المقالة الاولى والثانية للطب والعلاج، وخصص المقالة الثلاثين للجراحة، الا ان بقية المقالات جعلها للحديث عن الادوية المركبة ودورها فى علاج مختلف الأمراض

وكذلك فى الاشكال الصيدلية وطرق تحضيرها وتعاطيها
وجرعاتها ... الخ» (١٧) .

اما عدم تقدير الناس للزهاوى من حيث كونه صيدليا، فيرجع الى
أن المؤلفين العرب والغربيين اذا ذكر كتاب التصريف لم يعطوا
معلومات وافية عن مقالاته، ولم يهتموا الا بالجزء الخاص بالجراحة
والطب .

وإذا حاولنا أن نرصد بايجاز أهم ما قدمه الزهاوى فى مجال
الصيدلة نجده ذكر فى كتابه اوصافا لأساليب التحضيرات والتركيبات
والاستخلاصات المختلفة فى ابتكار الادوية، كما وصف بدقة كيفية صنع
قوالب من الأبنوس أو العاج ينفس فيه اسم الأقراص ، وقام بتحضير
الأدوية والعقاقير من النباتات والعناية والاحتفاظ بالاجزاء المجففة
منها، وعين معدن الأوعية التى توافق كل واحد منها كما نص على
مواطن النباتات ، حيث تنمو وتستورد منها، وقدم وصفا لهذه النباتات
وكيفية الحصول منها على الجزء أو الاجزاء التى تستعمل فى الطب،
وكذلك موعد جمعها وفصولها، واستخدم جهازا خاصا لتقطير المياه
العطرية، وشرح كثيرا من المواد الأخرى المستعملة فى تحضير الادوية،
وشرح كثيرا من المصطلحات الفنية» (١٨) .

وقد أثر الزهاوى بافكاره وابتكاراته هذه عن الادوية فى عدد من
علماء العرب ، نذكر منهم ابن العواصم فى كتابه عن الزراعة
المسمى « الفلاحة الاندلسية » الذى قال فيه انه « ليس هناك
احسن من طريقة الزهاوى فى استخراج ماء الورد» ، أما ابن البيطار،
فهو يستفيد من طريقة الزهاوى فى استخراج الزيوت ويذكرها فى
كتابته « الجامع لمفردات الادوية والأغذية » (١٩) ، بالإضافة الى
آخرين منهم الغافقى، والشريف الأدريسى، وابن ميمون، ولكنهم لم
ينوهوا غالبا بفضله وذكره (٢٠) .

وبعد أن ينتهى الحديث عن الجانب النظرى من كتاب الزهراوى،
نتقل الى الجانب العملى، والى هذا الجزء الثانى من الكتاب المختص
بالجراحة تعود شهرة الزهراوى فى الطب، وقد لفت هذا الجزء من
الكتاب انظار رجال الطب فى أوربا حتى طغى هذا الجزء على بقية
فصول الكتاب .

وقد خصص الزهراوى المقالة الثلاثين من كتاب التصريف
للجراحة، ومما يزيد من اهمية هذه المقالة، انه قد ضمنها عرضا ٢٧٨
صورة للادوات المستخدمة فى الأغراض الجراحية، ومن هذه الادوات
انواع من المراد، والصنانير والمباضع والمناشير والملاقط والكلايب
وادوات التشمير، والمجارد والمباخر، والمشارح والمشارط والمحاجم
والمقادح والمقاصيص والمقاطع والمثاقب المكاوى وغير هذا كثير (٢١).
وقدم وصفا جليا لكل الآلات التى يستخدمها فى العمليات الجراحية.
وبهذا الوصف للآلات الجراحية احتل الزهراوى مكانة متميزة فى
فن الجراحة لم يسبقه اليها طبيب آخر، واحتل مرتبة عالية فى فن
الجراحة مما جعل أحد الغربيين يذكره قائلا،، لاشك أن الزهراوى
اعظم طبيب فى الجراحة العربية،، (٢٢). كما يذكره آخر،، بانه ممثل
الجراحة فى المدرسة العربية،، (٢٣) ويؤكد ثالث على هذا المعنى قائلا
،، ان ابا القاسم كان بلاشك اعظم جراح مسلم فى العصور الوسطى،
وكان نقطة البداية فى الجراحة الأصيلة فى اسبانيا - الاندلس - ودول
أوربا الغربية،، (٢٤) .

وكانت الجراحة قبل عصر الزهراوى من الأعمال الخسيسة،
ومقصورة على علاج الفصادة ورد التخلعات بطريقة المقاومة الفجائية،
وجبر الكسور واستخراج الهام من الجروح، وكان هذا يعد عملا تافها
فى نظر الأطباء، ولذا تركوا هذا المجال للحجامين (الحلاقين) والعبيد
والمرتزقة .

ولم يكن التقليل من شأن الجراحة بالنسبة الى الطب مقصورا على العرب فقط ، بل كان هذا الوضع سائدا فى اوربا حتى عهد قريب ، ولعل ترفع الأطباء على الجراحة قبل عصر الزهراوى يعود الى اعتبارهم أن هذه الصناعة تعد صناعة بدوية ،، اما الطب فكان عندهم نتاج العقل، والعقل فى اعتبارهم أعلى منزلة من اليد ،، (٢٥) .

وبمجيء الزهراوى الذى ارتقى بفن الجراحة الى الأوج، وعرف كيف يخترع العديد من الأجهزة والادوات والاساليب الفنية ،، فعلنا بذلك آلية الفن الجراحى الذى ينبعث طبقا لبدايته العجيبة ليبلغ بفضله أهمية لم يعد يفقدها،، (٢٦) .

وبراعة الزهراوى الجراحية راجعة فى أساسها الى ابتكاره لعدد من الآلات الجراحية التى تعد ابتكارا خاصا به، لم يكن موجودا من قبل، فاذا تصفحنا الكتب الجراحية السابقة عليها مثل كتب بولس الأجينى واتيوس الآمدى، لم نجد فيها ،، صورة واحدة للآلات التى استعملها، فالكثير من آلات الزهراوى لاتقليدية،، (٢٧) .

والمقالة التى خصصها الزهراوى للجراحة ، وهى المقالة الثلاثين من كتاب ،، التصريف ،، يذكرها بالنشيا قائلا ،، اما الجزء الثلاثون من كتاب الزهراوى، الذى نشر فى اللاتينية باسم الجراحة Chirurgia فقد كان أهم وأذيع كتاب فى تاريخ الطب كله ، وقد ارتفع به الزهراوى فى اعين الناس الى طبقة البقراط وجالينوس،، (٢٨) .

وتنقسم هذه المقالة الى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : يختص بالكى وهو مقسم الى ٥٦ فصلا .

الباب الثانى : يختص بالجراحة وسائر العمليات الجراحية، وبه جزء عن امراض النساء، والعيون والانف، والحلق، والفم والاسنان، والاعصاب وغيرها .

اما الباب الثالث والأخير : فيختص بالكسور والخلع ، وهو مقسم الى ٣٥ فصلا . ومن خلال هذه المقالة سنقدم عرضا مختصرا وموجزا لأهم الاسهامات الجراحية التي قدمها الزهراوى :

الكى :

عالج الزهراوى فى هذا الباب طرق العلاج بالكى بالنار، والكى بالدواء الحاد وطرق تطبيقهما باختلاف المواضع من الجراحة العامة ، وباختلاف المواضع من الجسم مع ذكر الأمراض التي يستطب لها (٢٩).

وإذا كان الزهراوى ليس أول من استعمل الكى فى العلاج الطبى ، إلا أن الفضل يعود اليه فى انه وصل فى هذا المجال الى حد يقرب من الكمال، وابتدع له كثيرا من الادوات ، وطرق الصناعة، (٣٠) وذلك لتصحيحه عدة اشكال مختلفة للمكاوى محددًا هدف كل منها .

اجزاء الجراحات :

وفى الباب الثانى الخاص بالعمليات الجراحية، قدم الزهراوى انجازات عديدة سنحاول ان نحدد بعضها منها حسب المجال الجراحى الخاص به .

- ففى مجال الجراحة العامة ، قدم الزهراوى وصفا كاملا لكيفية صرف الخرايج ومكان وطريقة الفتح وعلاج الجرح بعد ذلك ، كما تكلم عن استعمال الضغط البطيء المستمر التدرجى لتفريغ التجاويف الكبيرة خصوصا اثناء الحمل واطراف العمر .

وميز بين نوعين من الجروح ، أحدهما الجروح القطعية، وقال انه يجب تنظيف الجلد من الأجسام الغريبة، وعند ظهور أى تورم كان يستخدم النييد أو رحيق الورد لتطهير الجروح وإزالة الأورام، اما الجروح الثانية، وهى التى تتغير بفعل الهواء وهو المصطلح الجراحى الذى يعبر عن تلوث الجرح - فاستطاع الزهراوى علاجه باستخدام

مساحيق معينة مطهرة ،، قام بتركيبها من النجور وعصارة بعض الخضروات، وما زالت تعرف باسم دم التنيق،، (٣١) وساعد هذا على التئام الجروح بسرعة .

- وفى مجال جراحة العظام ، وصف الزهراوى طريقة معاملة كل اصابات المفاصل ورضوضها، ومعاملة جروح الرقبة والقنطرة الهوائية ،، وكانت هذه الاعمال من اعمال الزهراوى الاصلية اذ لا يذكر فيها ايامن المراجع السابقة لعهد ،، (٣٢) .

- اما عن ازالة الحصى بالجراحة ، وهو ما يدخل فى مجال مبحث الجهاز البولى، فقد ادخل الزهراوى وبنجاح طرقا لاستعمال الملاقط لحل هذه المعضلة، واستطاع بهذه الملاقط سحق الحصى، وبعدها امكن ازلتها فى صورة زمال صغيرة، وهو بهذه الوسيلة ،، يعتبر اول من ابتكر علم تفتيت الحصى ووصف العملية بطريقة مبتكرة وجديدة،، (٣٣) .

- أما عن خياطة الجروح ، فيرجع هاريسون الفضل فى معرفة تعدد الخياطة ومختلف الغرز فى الاستعمالات الجراحية من طع (شعر) القطة أو القطن ، أو امعاء الحيوانات الى الزهراوى، الذى اكد على ضرورة الخياطة المنفصلة فى طبقات البطن .

- وفى جراحة التقويم، أو مايسمى بالجراحة التعويضية، نجد أن الزهراوى قد استحدث طريقة الكىّ لعلاج فليج الشفة، وذكر طرقا تعد بلا شك من ابتكاراته واليه يعود الفضل فى استعمالها لأول مرة وبنجاح (٣٤) .

- وعن جراحة الاذن والأنف والحنجرة، عرض الزهراوى فى كتابه ، لأدوات خاصة تعد من ابتكاره الخاص ، استخدمها لازالة اللوزتين ، كما وصف مبضعا خاصا للاستخدام فى عمليات الأنف ،

وذكر ايضا قمعا خاصا لادخال الدواء ، وكان من فضله ايضا انه يعد اول من ذكر ادوات خاصة لازالة الاجسام الغريبة من الخلق، وعملية بزل الاذن والاجسام الغريبة .

- وفى جراحة الفم والاسنان ، نرى الزهراوى يصف ولأول مرة فى تاريخ الطب الألم المنتقل وخطره، مما يضعه على مستوى عصرى (٣٥) فى عالم الجراحة حتى اليوم كما يبدو فى عمليات جراحة الاسنان بارعا ودقيقا ، وخاصة فى حديثه عن الاسنان المتحركة وكيفية تثبيتها ، وحديثه عن مشكلة الاسنان المفقودة، وتحديد طرق التعويض الصناعى .

- اما عن جراحة الجمجمة والأعصاب ، هذا التخصص الذى يعد حتى يومنا هذا من العمليات الجراحية الدقيقة، نجد للزهراوى افكاره وابتكاراته فى هذا المجال الدقيق من مجالات الطب، فعرض فى كتابه طريقة تشخيص كسور الجمجمة وطرق اكتشافها، وتميز الزهراوى فى هذا بوصف الخطوات العملية لجراحة الجمجمة وما يجب على الجراح تحضيره من ادوات خاصة لكل نوع من انواع الاصابات (٣٦) .

وكان للزهراوى فى مجال الجراحة فلسفة جراحية معينة اتبعها فى عمله، ويمكننا تقسيمها الى قسمين أحدهما عام علمى، والآخر منهجى عملى، .

قام الجانب العلمى فيها على جمع المعلومات التى كانت معروفة قبله فى الجراحة واتقانها وتوضيح جوانب الخطأ والصواب فيها، ثم يتبنى لنفسه بعد ذلك طريقة جديدة خاصة به، استفاد فيها من السابقين مع اضافة افكاره الخاصة، حتى بدت العمليات الجراحية عنده بصورة اكثر علمية مما كانت سائدة قبله، وكانت هذه الطريقة عنده مؤسسة على معرفة تامة بعلم التشريح .

ولذا وجه الزهراوى اهتمامه لدراسة علم وظائف الاعضاء قائلا:
 ,,ان صناعة الطب طويلة، وينبغى لصاحبها أن يرتاض قبل ذلك فى
 علم التشريح حتى يقف على منافع الأعضاء وهيئتها، (٣٧) .
 وبهذا فتح الزهراوى للعرب والمسلمين مجال دراسة التشريح مع
 توضيح أهميته باعتبار أن التشريح كان حتى عصره من الامور
 المكروهة اسلاميا لحرمة جسد الموتى، الا أن الزهراوى اوضح لما فى
 هذه الدراسة من أهميتها للحياة، فكان يقوم بدراسة علم التشريح
 وتطبيقه، فشرح جثث المحكوم عليهم بالاعدام، وجثث الموتى
 بالمستشفيات ممن غاب عنهم أهلهم وذووهم .
 وكان الزهراوى يؤكد دائما فى كتاباته على أهمية الالمام التام بعلم
 التشريح الذى بدونه يصبح الجراح عاجزا تماما ، فيقول فى مقدمة
 كتابه ,,التصريف:،، من لا يبرع فى التشريح لا بد وأن يقع فى خطأ قد
 يؤدى بحياة المريض،، ولذا يدعو الى اتقان التشريح قبل اجراء،
 الجراحات قائلا لتلاميذه ،،لاتقوموا البتة بعملية جراحية ما لم تعرفوا
 بالضبط موقع الأوردة والأعصاب واوتار العضلات ،، وهذا تأكيد له
 أهمية خارقة للعادة، وتحدث لأول مرة فى تاريخ الطب الاسلامى، ويدل
 على اتجاه جديد فى مزاوله المهنة (٣٨) .
 ومن آرائه العلمية ايضا، فى هذا المجال تعريفه لمفهوم الألم
 باعتباره عرضا وليس مرضا، ولذا دعى الى علاج السبب الأصلى
 المسبب لهذا الألم.
 اما عن مساهماته العملية المنهجية، فقد حدد ابو القاسم الزهراوى
 وسيلة تمنع المثقاب من أن يخترق تجويف الجمجمة ، ووصف عمليات
 شق الجمجمة بنفس الطريقة التى تجرى بها حاليا ، كما اشار الى
 ضرورة التجهيز الدائم للآلات الجراحية ، وأن تظل دائما
 جاهزة للطوارى (٣٩) .

هذ الى جانب اسهامات اخرى متعددة لم يسبقه اليها أحد، فكان اول من وصف الناعور (المهيموفيليا) وأول من كتب عن تشوهات الفم وسقف الحلق، وربما كان اول من اشار الى حالة الحمل خارج الرحم (٤٠) هذا مع آرائه ونظرياته الجديدة فى مجال الجراحات النسوية .
 و اشار الى ضرورة استخدام مساعدات وممرضات من النساء فى حالة اجراء عمليات جراحية لامرأة، لأن ذلك أدعى الى الطمأنينة والرقّة .

ومن فلسفة العملية المنهجية ايضا ضرورة المران من قبل اجراء العمليات الجراحية والاعتماد على التجربة ، فيرى الزهراوى ، انه ليس من المسموح به القيام بعملية جراحية فى شخص ما لم تجرب تلك العملية فى الحيوانات مسبقا، ومالم يكن لدى الطبيب اليقين الكامل والتأكد التام من توافر كل ذرائع الاسلوب الفنى (التقنيات) .

وعلى الرغم من براعة الزهراوى فى اجراء الجراحات، الآ انه لم يكن يلجأ اليها الآ فى الحالات الملحة ولا ينصح بها الآ اذا كانت العملية الجراحية يرجى من ورائها فائدة عملية، ولذا ينصح تلاميذه قائلا : ,, يا ابنائى ! توخوا الحرص والعناية فى عملكم وعاملوا مرضاكم برقة وصبر ،،(٤١) كما كان ينصحهم باتباع افضل الطرق المؤدية الى شفاء المريض مفضلا العلاج باستخدام الأدوية باعتبار أنها اقل الطرق ايلاما للمريض .

وكان الزهراوى حريصا على التمسك باخلاقيات مهنة الطب ، فيرى أن النقد الذاتى ضرورى لأى تقدم علمى، فعلى قدر ما يغتبط المرء لنجاحه لا بد أن يتحلى بالشجاعة الأدبية بحيث لا يغفل عن ذكر لحظات فشله ، ومن محاسنه ايضا أنه كان يسجل على نفسه اخطائه ولحظات فشله سواء كان ذلك تأخرا فى العلاج ، أو فشلا .

ويوجه الزهراوى فى مقدمة كتابه النصائح التى يجب على تلاميذه معرفتها واتباعها لتحقيق مبدأ الانسانية فى مهنة الطب ، فكان يحذر تلاميذه من وقت لآخر من اجراء عمليات عن شأنها أن تلحق بهم سمعة سيئة نظرا لخطورتها وصعوبتها ويرى أن الجراحة يجب أن يكون الدافع الأول والاخير لها مصلحة المريض ، فكان ينصح تلاميذه بأن لايسرعوا فى عمل أى شىء الا اذا كانوا واثقين انه سيعود على المريض بنتيجة طيبة ، وكان يقول : ,, ليكن الحرص اقوى عندكم من الجشع وحب الكسب . .

كما يلاحظ القارئ لكتاب التصريف ، ومن اقوال الزهراوى، ايمانه المطلق بأن الله هو العلة الحقيقية والأخيرة فى الشفاء، وان العلاج ما هو الا وسيلة دعا الله اليها فكان شعاره : ,, انا اعالج والله يشفى،، يبرز فى كل صفحة من صفحات الكتاب، ويعبر عنه الزهراوى بقوله ,,ادعوا الله يا ابنائى ان يلهمكم الهداية والنجاح ، فالنجاح بيد الله،، (٤٢) .

أثره على تطور الطب فى اوربا :

على الرغم من المستوى الذى ظهر به الطب كعلم وفن وممارسة واخلاقيات عند الزهراوى فى القرن العاشر والحادى عشر، كان الطب فى اوربا على حالة متخلفة تماما عن المستوى الذى وصل اليه الطب الاندلسى عند الزهراوى .

فكانت صورة الطب فى اوربا حينئذ فى غاية الاهمال والتخلف بحيث لم يحظ بأدنى حظ من عناية الافراد أو الجماعات، ولعل هذا يعود الى النظرة المتخلفة للمرض، فقد سيطرت الكنيسة فى هذا العصر على عقول الناس ، ووجهت حياتهم وجهة معينة، ونادوا بأن المرض نوع من العقاب الالهى ، ولذا لا يصح للانسان أن يتداوى منه، لأن هذا

يعتبر تحديا للارادة الالهية ، والمريض مرض لأن الله اراد أن يعاقبه بالمرض ، فكان ،، تطييه ومداواته لايعنيان الا مساعدته على التهرب من تنفيذ الحكم الالهي عليه ،،(٤٣) .

ومع نهاية القرن العاشر، اخذت تنقشع تدريجيا موجة الظلام التي سادت نظرة الغرب الى الطب، وبدأت بشائر النهضة التي صاحبها حركة انفتاح على الحضارة الاسلامية، وبدأت حركة ترجمة كان من أهم جوانبها ترجمة الكتب الطبية، ومنها كتاب الزهراوى .

وقد تم ترجمة اجزاء من كتاب ،،التصريف،، للزهراوى على يد جيرارد كريمونا(٤٤) . فترجمة الى اللاتينية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر وسماه الساهارا اقاوريوس وهما تحريفان لاسم الزهراوى (٤٥) .

وبالاضافة الى الترجمة اللاتينية ، صدر الكتاب بعد ذلك فى عدد من الترجمات بلغات مختلفة، فصدر فى ترجمة عبرية، وبعدها بسنوات ترجم الى اللغة البرفانسية وفى عصر النهضة صدرت طبعات لاتينية ١٥١٩م ، وفى فينيسيا واستراسبورج ١٥٣٢ وبازل ١٥٤١ م واستراسبورج مرة اخرى ١٥٥٤ م .

كما ظهرت ترجمة باللغة التركية قدمها شرف الدين بن على الحاج الياس فى القرن الخامس عشر، وفى عام ١٧٧٨م صدرت نسخة اكسفورد، بينما أصدر لكليرك نسخة فرنسية بعنوان ،، جراحة ابي القاسم ،، فى باريس ١٨٦٠م ، كما ظهرت نسخة عربية مطبوعة بطريقة الطباعة الحجرية ١٩٠٨م ، وفى عام ١٩٧٣م صدرت طبعة انجليزية تشتمل على النص الأسمى باللغة العربية مع ترجمة بالانجليزية مضاف اليها الحواشى والتعليقات اصدرها عالمان احدهما متخصص فى اللغات والآخر طبيب هما سينك ولويس وما زال الكتاب

حتى اليوم يحظ بالعديد من الدراسات ، فظهرت حديثا دراسات ممتازة عن الكتاب ومؤلفه قام به لكليرك ونابانللى وجيرلت وجارسيا بالسر (٤٦) .

وقد اطلع على هذا الكتاب اعظم اطباء اوربا فى القرن الرابع عشر وهو الطبيب الفرنسى جردى شولياك (١٣٠٠ - ١٣٦٨م) فاعجب به، وقال عن مؤلفه ,, انه حرى ان يعد الى جانب البقراط وجالينوس،،(٤٧) .

ويبدو تأثر شولياك بالزهرأوى فى العديد من الجوانب الجراحية، وبهذا الجراح الفرنسى تبتدى سلسلة طويلة من الجراحين الفرنسيين وغيرهم، تأثروا تأثرا كبيرا به متخذين فى ذلك نفس طرق الزهرأوى الجراحية .

كما تأثر بالزهرأوى ايضا طبيب جراح ايطالى عاش فى القرن الثالث عشر، واخذ عن الزهرأوى طريقته فى علاج المرض الذى يصيب الصبيان والمسمى Hidracifal .

ويعلق أحد جراحى القرون الوسطى على أهمية الزهرأوى وأساليبه قائلا :,, ان اشهر جراحى القرون الوسطى وهو موندنودى لوتس (١٢٧٥ - ١٣٢٦م) اجاد كل الاجادة فى وصف الفتاق ، ولكن لا أظن انه تفوق او بلغ مبلغ الزهرأوى فى هذه العملية،،(٤٨) .

ويرى أطباء آخرون أن فى الطب ثلاثة علماء ، يونانى وهو سلس، وبيزنطى وهو بولس الأجينى وعربى وهو ابو القاسم الزهرأوى (٤٩) .
ويجمع الباحثون على ان تقدم التشريح فى اوربا وفى جامعاته الناشئة فى عصر النهضة جاء نتيجة لمؤثرات عربية اسلامية ونتيجة لترجمة كتاب ابى القاسم الى اللاتينية وهو الكتاب الذى ,, أحدث ثورة شاملة فى علم التشريح،، (٥٠) ، ويذكر د . فابر يفوس داكوا بندينى،

استاذ التشريح فى جامعة بادوا (١٥٣٣ - ١٦١٩م) الزهراوى فيعتبره اعظم جراحى زمانه (٥١) .

ويقرر أحد مؤرخى الجامعات الأوربية، وهو راشدال، رغم تعصبه ضد أثر الحضارة الاسلامية - ,, انه ماكاد يحل القرن الرابع عشر حتى صارت السيادة للطب الاسلامى فى كافة كليات الطب فى الجامعات الأوربية ,, (٥٢) .

وبفضل نبوغ الزهراوى فى الجراحة خلد اسمه فى سجل عباقرة الزمان، فينسب له عميد الجراحة الحديثة فى امريكا ,, هالستيد ,, فضل اجزاء اول عملية جراحية ناجحة لاستئصال الغدة الدرقية فى عام ١٩٥٢م ، ويقول عنها أنها تمثل اعظم انتصار لفن الجراحة اكثر من أى عملية اخرى (٥٣) .

وهكذا ظل الزهراوى باسهاماته الطبية وكتابه العلمى مرجعا للطب عامة وللجراحة على وجه الخصوص فى الشرق والغرب لعدة قرون، وظل مرجعا اساسيا فى كليات الطب حتى القرن التاسع عشر، ولهذه المكانة الفريدة التى احتلها الزهراوى فى عالم الطب اطلقت عليه دائرة المعارف البريطانية لقب اعظم جراح فى الاسلام خلال القرون الوسطى ، ورأت ان تعاليمه الطبية ظلت تؤثر على تطور الجراحة فى اوربا خلال خمسة قرون .

هوامش

- ١ - عن حياته انظر : عيون الانباء فى طبقات الاطباء لابن ابى اصيبعة - دار الفكر بيروت ١٩٥٧ م ، ج ٣ ، ص ٨٥ ، خير الدين الزركلى : الاعلام ط . ٢ ، ١٩٥٤ م ، ج ٢ ، ص ٣٥٨ ، حاجى خليفة : كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون ط . طهران ١٩٤٧ م ، ص ٤١١ ، ٤٢٥ ، بروكلمان : الادب العربى ، ترجمة يعقوب بكر ، دار المعارف مصر ، ١٩٧٥ م ، ج ٤ ، ص ٣٣٠ - ٣٠٢ ، رضا كحالة : معجم المؤلفين ، دمشق ، ١٩٦٠ م ج ٢ ، ص ١٥٠ ، سامى حداد : مجلة العروة عدد

- تموز ١٩٣٦م ، ص ٥٤ ، ٥٨ ، العربية الميسرة ، القاهرة ، ١٩٦٥ م ، ص ٩٣٠ .
- د.كمال السامرائي : مختصر تاريخ الطب العربي ، العراق ، ١٩٨٤م ، ج ٢ ، ص ١٦٧ ، وعنه أقرأ:
- Campbell, D., Arabian Medicine, 2 Vols, London. 1926. Carrison, F.H. An Introduction to the History of Medicine, 4th. Ed. Saunders 1929.
- Spink and Lewis, Albucares on Surgery and Instruments, University. California Press 1973.
- ٢ - الزهراء ضاحية بناها عبدالرحمن الثالث على بعد خمسة كيلومترات شمالى غرب قرطبة ، وكانت تسمى بفرساي الاندلس ، ولكنها لم تعمر سوى خمسين عاما بعدها اصابها الخراب .
- ٣ - انور حسين شودرى : فضائل الطب الاسلامى ، ضمن المجلد الأول للطب الاسلامى ، الكويت ، ١٩٨٠م ص ١٣٠ .
- ٤ - الدوميلى : العلم عند العرب واثره فى تطور العلم العالمى ، ترجمة عبدالحليم النجار ، ومحمد يوسف موسى ، القاهرة ط . ١٠ ، ١٩٦٢م ، ص ٣٥٣ ، السامرائي : مختصر تاريخ الطب ص ١٤٣ ، وايضا انظر دائرة معارف الشعب - القاهرة ١٩٥٩م ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، ١٩٩ ، حديث عن الحالة العلمية فى الاندلس .
- ٥ - الدوميلى : العلم عند العرب ص ٣٥٣ .
- ٦ - ديوسقوريدس من اعظم اطباء روحا فى المائة سنة التى أعقبت الميلاد وهو سابق لمولد جالينوس ، ولع بدراسة الاعشاب واكتشاف منافعها فى الطب ، وكتابه (الحشائش) أو (هيولى الطب) ضمنه مايزيد على التسعمائة وخمسين عقارا ، وتوجد فى اسطنبول نسختان من كتابه اقرا عن ديوسقوريدس فى انفهرست لابن النديم ، ترجمة فلوجل ، بيروت ص ٢٩٢ ، تاريخ الحكماء للقفطى ترجمة جوليوس ليرت . ليبرج ١٩٠٣م ، ص ١٨٣ ، مختصر تاريخ الدول لابن العبري ، المطبعة الكاثوليكيين بيروت ، ١٩٥٧م ، ص ١٠٤ ، طبقات الاطباء لابن جلجل ، ترجمة فؤاد سيد ١٩٥٥م ، ص ١٣١ .
- ٧ - ابن جلجل : طبقات الاطباء ، مقدمة المحقق ص (ي) .
- ٨ - السامرائي : مختصر تاريخ الطب ، ج ٢ ، ص ١٧٠ .
- ٩ - هو ادوارد جرانييل براون مستشرق بريطانى ولد ١٨٦٢م ، درس الطب واللغات الشرقية (العربية والفارسية) .
- ١٠ - براون : الطب العربى : ترجمة محمد شوقى ، القاهرة ١٩٦٦م ، المحاضرة الرابعة ، ص ١٢١ .
- ١١ - توجد منه عدة نسخ منها عربية انجليزية قدمها سينك ولويس ، كاليفورنيا ١٩٧٣م ، واخرى طبعة حيدر آباد (د.ت) وثالثة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٣٥ طب .
- ١٢ - ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ٣ ، ص ٨٥ .
- ١٣ - حققه ونشره عبدالحميد الحلوجى فى بغداد ١٩٧٦م .
- ١٤ - د . أحمد عبدالحق ، وسيد وسيم : الانجازات الجراحية لابي القاسم الزهراوى ، مقالة ضمن المجلد الثانى للطب الاسلامى ، الكويت ١٩٨٢م ، ص ٥٨٥ .
- ١٥ - الزهراوى : مقدمة المقالة الثلاثين من كتاب التصريف .
- ١٦ - ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ٣ ، ص ٨٥ .

- ١٧ - محمد كامل حسين وآخرون : موجز تاريخ الطب والصيدلة ج ٢ ، ص ١٩٧٩م ، ص ٤٠٩ .
- ١٨ - المرجع السابق ط ٢ ، ص ٤١١ ، وايضا سامى خلف ضمارنة : الزهراوى الطيب والجراح ومنتجات الممالك الطبيعية والدوائية وتضييعها، مقالة ضمن المجلد الثانى للطب الاسلامى الكويت ، ص ٥٦٨ .
- ١٩ - طبع بالقاهرة ١٢٩١ هـ فى اربعة اجزاء وقد لخص الملك المظفر فى كتابه ,, المعتمد فى الادوية المفردة، وصححه وفهرسه مصطفى السقاط ، ط ٢ ، ١٩٥١ م .
- ٢٠ - د . زهير البابا : الصيدلى ابو القاسم ، مقالة ضمن المجلد الثانى للطب الاسلامى ، ص ٥١٤ .
- ٢١ - السامرائى : مختصر تاريخ الطب العربى ط ٢ ، ص ١٧٣ .
- ٢٢ - د . عبدالعزيز بن عبدالله : الطب الاسلامى ، وابعاده ، مقالة ضمن المجلد الثانى للطب الاسلامى
- ٢٣ - D. "Lucien Lederc: Histore de la Medecine Arabe, Rabat 1980-P. 437.
- ٢٤ - خوسيه ازكريدو : فضل الجراح الاندلس المسلم ابى القاسم الزهراوى على جراحة الاعصاب ، مقالة ضمن المجلد الأول للطب الاسلامى ، الكويت ١٩٨١م ، ص ٣٨٩ ، مسيخون حايك : ابو القاسم الزهراوى اشهر طبيب جراح فى القرون الوسطى ، ضمن المجلد الثانى للطب الاسلامى ص ٤٩٣ .
- ٢٥ - محمد كامل حسين : موجز تاريخ الطب والصيدلة ج ١ ، ص ٩٨ .
- ٢٦ - د . عبدالله محمد العمرانى : الطب الاندلس نظرياته وتطبيقاته ، مقالة ضمن المجلد الثانى للطب الاسلامى ، ص ٣٦٥ .
- ٢٧ - السامرائى : مختصر تاريخ الطب ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .
- ٢٨ - انخل جينثالث بالثنيا : تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة د . حسين مؤنس ط ١ ، ١٩٥٥م ، القاهرة ص ٤٦٦ .
- ٢٩ - السامرائى : مختصر تاريخ الطب ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .
- ٣٠ - محمد كامل حسين : موجز تاريخ الطب ج ١ ، ص ١٠٧ .
- ٣١ - فرنسيسكو جوير : علاج الصروب فى الطب الاسلامى ، مقالة ضمن المجلد الثانى للطب الاسلامى ، ص ٣١ .
- ٣٢ - احمد عبدالحى ، وسيد وسيم أحمد : تراث الاسلام فى الجراحة الحديثة مقالة ضمن المجلد الأول للطب الاسلامى ، ص ٣٦١ .
- ٣٣ - أحمد عبدالحى ، وسيد وسيم : تراث الاسلام فى الجراحة الحديثة ، ص ٣٦١ .
- ٣٤ - المرجع السابق ص ٣٦٣ .
- ٣٥ - د . محمد كامل حسين : موجز تاريخ الطب ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .
- ٣٦ - د . عبدالقادر عبدالجبار : جراحة الجمجمة والدماغ عند الاطباء ، مقالة ضمن المجلد الأول للطب الاسلامى ، ص ٣٧٦ .
- ٣٧ - محمد كامل حسين : موجز تاريخ الطب ج ١ ، ص ٣٦٢ .
- ٣٨ - د . عبدالله العمرانى : الطب الاندلس ص ٣٦٦ .

- ٣٩ - خوسيه اذكريدو : فضل الجراح الأندلس ابي القاسم على جراحة الاعصاب ص ٣٨٩ .
- ٤٠ - السامرائى : مختصر الطب العربى ج ٢ ، ص ١٧١ .
- ٤١ - مقدمة كتاب التصريف .
- ٤٢ - د . أحمد عبدالحى ، وسيد وسيم : الانجازات الجراحية ص ٥٥٥ .
- ٤٣ - د . عبدالفتاح عاشور : الطب الاسلامى فى الجامعات الأوربية فى عصر النهضة ، مقالة ضمن المجلد الثالث للطب الاسلامى ، الكويت ١٩٨٣م ، ص ٨٠ .
- ٤٤ - جيرارد كريمونا ، ولد ١١١٤م ، وتوفى بطليطلة ص ١١٨٧ ، وكان يعد من أشهر المترجمين من العربية ، ويقال انه كان رئيسا معترفا به لمدرسة من المترجمين كانت تعمل من طليطلة تحت حماية الحكومة . انظر عن الدوميلى : العلم عند العرب ص ٤٥٨ ، دائرة معارف الشعب ص ١٩٦ ، د . محمود الجليلي: اثر الحضارة الاسلامية على الحضارة الأوربية فى عصر النهضة ، مقالة ضمن المجلد الثالث للطب الاسلامى ص ٧٢ .
- ٤٥ - بالنتيا : تاريخ الفكر الاندلسى ، ص ٤٦٦ .
- ٤٦ - جارسيا بالستر ، استاذ بجامعة غرناطة .
- ٤٧ - فؤاد سزكين : مكانة علماء المسلمين فى تاريخ الطب ، مقالة ضمن المجلد الأول للطب الاسلامى ، ص ١٣٩ .
- ٤٨ - A.C. Grombie: Histore de La Cioncia San Agustin a Galileo, Madrid, 1970.
- ٤٩ - السامرائى : الجراحة النسوية عند ابي القاسم الزهراوى ، مقالة ضمن المجلد الثانى للطب الاسلامى ص ٣٦١ ، وايضا د . محمد كريم : اثر الطب الاسلامى فى علوم التشريح ، نفس المجلد ص ٣٦٤ .
- ٥٠ - د . عبدالفتاح عاشور : الطب الاسلامى فى الجامعات الأوربية ص ٩٦ .
- ٥١ - محمد كامل حسين : موجز تاريخ الطب ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .
- ٥٢ - د . عبدالفتاح عاشور : الطب السلامى فى الجامعات الأوربية ص ٩٧ ، ٩٨ .
- ٥٣ - مسيخون حايك : الزهراوى اشهر طبيب جراح فى القرون الوسطى ص ٤٩٥ .

